المحاضرة الحادية عشرة

الأنثروبولوجيا الطبية: الجذور الاكاديمية والتطور

لم تبدأ الأنثروبولوجيا الطبية في الظهور حتى الخمسينيات من القرن الماضي. ومع ذلك، يؤكد أوتو فون ميرينغ (Otto von Mering) أن العلاقة الرسمية بين الأنثروبولوجيا والطب بدأت عندما ساعد رودولف فيرشو[١] (Rudolf Virchow)، عالم الأمراض الشهير المهتم بالطب الاجتماعي، في تأسيس أول تجمع أنثروبولوجي في برلين[٢]. وحقيقة القول، تأثر فرانز بواس بعالم الامراض فيرشوف عندما كان احد اعضاء متحف برلين الإثنولوجي للمدة (١٨٨٣-١٨٨٦)[٣].

قام العديد من علماء الأنثروبولوجيا بجمع بيانات عن المعتقدات والممارسات الطبية جنبًا إلى جنب مع البيانات المعتادة عن القرابة وأنشطة الكفاف والدين وأشكال التثاقف. اذ كانت المجتمعات الأصلية في إفريقيا والمحيط الهادئ والأمريكيتين التي درسها علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ذات بنى وحضارات معقدة ومع ذلك، كانت هذه المجتمعات

---

[١] رودولوف فيرخوف أو رودولف فيرشو (١٨٢١ – ١٩٠٢) طبيب وأخصائي علم أمراض وبيولوجي وسياسي وكاتب ألماني، يُعرف بوالد علم الأمراض الحديث بسبب أعماله وإنجازاته التي ساهمت في دحض الخرافات المحيطة بهذا العلم ووضع منهجيَّة واضحة ومتوازنة له، وهو معروف أيضاً باسم مؤسِّس الطب الاجتماعي والمهني.

[2] Mering, Otto von. 1970. “Medicine and Psychiatry.” In *Anthropology and the Behavioral and Health Sciences*, ed. Otto von Mering and Leonard Kasdan, 272–307. Pittsburgh: University of Pittsburgh Press.

[3] Trostle, James. 1986. “Early Work in Anthropology and Epidemiology: From Social Medicine to the Germ Theory, 1840 to 1920.” In *Anthropology and Epidemiology: Interdiscplinary Approaches to the Study of Health and Disease*, ed. Craig R. Janes, Ron Stall, and Sandra M. Gifford, Dordrecht, Netherlands: D. Reidel.

مختلفة تمامًا عن تلك التي يدرسها علماء الأنثروبولوجيا اليوم –وقد كان لطقوس وممارسات الشفاء مكانة خاصة في العديد منها. وتم توثيق العديد من الدراسات مثل هذه الطقوس، بالإضافة إلى التعامل من متخصصي الشفاء من السكان الأصليين،

اسهامات وليم هيلس ريفرز

يعد دبليو إتش آر ريفرز [1] (W. H. R. Rivers) الذي اشتهر من خلال ثلاثية الروائية الخيالية بات باركر (Pat Barker) [2] عن حياته أكثر من كتاباته الأنثروبولوجية. اذ كان من أوائل الأطباء الذين أصبحوا علماء في الإثنولوجيا، كما تنظر بعض الكتابات أحيانًا بأنه مؤسس الأنثروبولوجيا الطبية. وكان عضوًا بارزا في رحلة مضيق توريس إلى المحيط الهادئ في عام (١٨٩٨)، حيث أجرى تجارب نفسية أساسية مع السكان المحليين. وسافر على نطاق واسع في البعثات العلمية وأصبح متخصصًا في المجتمعات البولينيزية والميلانيزية.

---

[1] وليم هيلس ريفرز (١٨٦٤–١٩٢٢) عالم أنثروبولوجيا إنجليزي، وطبيب أعصاب، وعالم إثنولوجي وطبيب نفسي، اشتهر بعمله في علاج ضباط الحرب العالمية الأولى الذين كانوا يعانون من صدمة القذائف لإعادتهم إلى القتال. أشهر مريض عند ريفرز كان الشاعر (سيجفريد ساسون)، الذي ظل معه كأحد أصدقائه المقربين حتى وفاته في بداية العقد الثاني من القرن العشرين، طور ريفرز العديد من الخطوط الجديدة للبحث النفسي. بالإضافة إلى ذلك، كان أول من استخدم نوعًا من الاختبارات في التحقيق من الآثار الجسدية والنفسية لاستهلاك الشاي والقهوة والكحول والمخدرات.

[2] ثلاثية التجديد – التجديد (١٩٩١) ، والعين في الباب (١٩٩٣) ، وطريق الشبح (١٩٩٥) – مجموعة من الروايات التي تستكشف التاريخ الأول للحرب العالمية من خلال التركيز على آثار الصدمة. رواية مكتوبة بشكل جميل توضح الأضرار النفسية والجسدية التي سببتها أهوال حرب (١٩١٤–١٩١٨) وان الشخصيات الأكثر تكرارًا في الثلاثية هي صورة خيالية للدكتور ويليام ريفرز الواقعية، وقد تم تقديمها كشخصية لا تعرف الكلل، ومستنيرة، تدرك تمامًا أن وظيفتها الرئيسة هي "شفاء" الجنود بكل بساطة حتى يمكن إعادتهم إلى البيئة ذاتها التي عجلت بانهيارها.

يستشهد علماء الأنثروبولوجيا الطبية بمحاضراته التي القاها في فيتزباتريك (Fitzpatrick) في الكلية الملكية للأطباء في لندن في عامي (١٩١٥ و ١٩١٦)، والتي نُشرت باسم الطب والسحر والدين عام (١٩٢٤) وهي جزء لا يتجزأ من مناقشات مراحل تطور المجتمعات نحو "الحضارة"، وربما غير الإثنوغرافية إلى حد كبير بالمعنى المعاصر للكلمة. ومع ذلك، فإن حججه قوية. كتب عن "عقلانية الممارسة العلاجية (Leechcraft) ، وهو مصطلح يستخدم للدلالة على مجال المعرفة الطبية التجريبية، وناقش "ممارسات الناس فيما يرتبط بالمرض، واوضح انها ليست مزيجًا من العادات المنفصلة وغير ذات المعنى، وانما مستوحاة من أفكار محددة في بيان سبب المرض[١].

ان عمل ريفرز الإكلينيكي عن صدمة القصف او المقذوف (shell shock) بين جنود الحرب العالمية الأولى وانعكاساته الأخلاقية حول علاج الجنود من أجل إعادة تأهيلهم إلى الجبهة هو الأكثر تعقيدًا ومعاصرة من مقارباته الاثنولوجية. ومع ذلك، فإن مناقشته لكيفية توفير الأنظمة الطبية الأصلية لإطارات سببية لشرح المرض وسوء الطالع وجهوده لتصنيف هذه الأنظمة التفسيرية كانت مثالًا مبكرًا لما أصبح يُعرف بتقليد العقلانية في الأنثروبولوجيا البريطانية.

ناقش ريفرز القضايا المرتبطة بالصحة عبر الثقافات، اوضح في كتابه الطب والسحر والدين، أن "الممارسات الطبية ليست مزيج من العادات المنفصلة والتي لا معنى لها "ولكنها بالأحرى جزء لا يتجزأ من النظم الاجتماعية–الثقافية الأكبر التي يتم دمجها فيها. في حين أن هذه الملاحظة قد تبدو واضحة اليوم، فإن أتباع مدرسة الأنثروبولوجيا المعروفة باسم الخصوصية التاريخية يميلون إلى النظر إلى الثقافة على أنها شيء من الخيوط والاثار أو نتيجة ثانوية لعملية معقدة من الاتصالات بين العديد من الجماعات الاجتماعية.

---

[1] Rivers, W.H.R. 1924. *Medicine, Magic, and Religion.* London: Kegan, Paul, Trench, Trubner and Co.

يرى ريفرز انه إذا فحصنا معتقدات النوع البشري بشكل عام فيما يرتبط بسببية المرض، نجد أن الأسباب يمكن تصنيفها في ثلاث فئات رئيسية:

(١) الفاعلية البشرية، حيث يُعتقد أن المرض يرجع مباشرة إلى فعل من جانب بعض البشر.

(٢) عمل كائن روحي أو خارق للطبيعة، أو بشكل أكثر تحديدًا، عمل فاعل ما ليس بشريًا، ولكن تم تجسيده بشكل أو بآخر.

(٣) الأسباب الطبيعية نتيجة التعرض الى عارض ما.

ويضيف توجد بيننا دلائل على وجود جميع أنواع المعتقدات الثلاثة، وهذا كان بالتأكيد في الماضي غير البعيد. ونحن الآن نفكر فقط في الفاعلية البشرية في حالات السم والإصابة، وبعد ذلك فقط على أنها الوسيلة التي يتم من خلالها توجيه عمل الأسباب الطبيعية. اما الفئة الثانية فإنها لا تزال موجودة في "يد الله" وفي فرائضنا، وفي الطقوس الشفوية لديننا، لكنها توقفت عن المشاركة في الطب المألوف، رغم أنها لا تزال تلعب دورًا ما في سلوك العوام تجاه المرض. تنقسم فئة الحالات التي من المفترض أن تكون سبب المرض وفيها بعضًا الشيء أو المادة التي تم إسقاطها في جسم الضحية إلى مجموعتين، اذ كما وجدت الأشياء الموروثة الطريق إلى جسد الضحية عن طريق فعل بشري مباشر، فانها يمكن ان تكون عن طريق عمل بعض العوامل غير البشرية. وكلا النوعين متكرر الحدوث في أستراليا مثلا، حيث الأشياء المادية مثل الأحجار والبلورات والشظايا من العظام، أو الأوراق يعتقد أنها سقطت في الجسم، وفي البعض عن طريق السحرة، وفي حالات أخرى عن طريق الكائنات الروحية.

في الفن المهني للطب، وفي ممارسة غالبية المعالجين، يتم توجيه موقف المرض عند الإيمان بإنتاجه من خلال أسباب طبيعية، وهذا يعني مجموعة من المعتقدات التي وفقًا لها يأتي المرض إلى الوجود باعتباره نتيجة حتمية للتغييرات في بيئتنا ومستقلة تمامًا عن الفاعلية البشرية أو الخارقة، من ناحية أخرى، إذا قمنا بفحص ثقافة أي أناس بدائيين أو تقليديين، نجد أن معتقداتهم

المرتبطة بإحداث المرض تقع بشكل رئيسي في فئة أو أخرى أو كلتا الفئتين الأوليتين، بينما في كثير من الحالات لا يمكن القول بوجود فئة معينة، وحتى ذلك الحين لا يمكننا تعيين المعتقدات لفئة السببية الطبيعية. ان أحد عناصر مفهوم المرض، وربما الأهم، هو أنه يشمل في نطاقه عامل السببية. وعادة ما تكون هناك أفكار واضحة بشأن الظروف المباشرة التي تؤدي إلى ظهور المرض. ويمكن أن ينتج المرض؛ طريقة العلاج كقاعدة من هذا القبيل على وفق طبيعة السبب، والتي يمكن تمييزها بثلاث فئات رئيسية:

(١) يتم إسقاط كائن أو مادة صخرية في جسم الضحية في بعض الحالات.

(٢) تلك التي يُستخرج فيها شيء من الجسد.

(٣) ما يعمل به الساحر على جزء من جسد الإنسان أو في بعضه الشيء الذي ارتبط بجسد الشخص، في الاعتقاد وبذلك يمكنه التصرف على الشخص ككل[1].

[1] Rivers, W.H.R. 1924. *Medicine, Magic, and Religion.* London: Kegan, Paul, Trench, Trubner and Co.